قناة لوغوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
إيبارشيَّة لوس أنجلوس
لقاء على الهواء. الأربعاء ١٨ نوفمبر ٢٠١٥م
الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

بين أسرار الكنيسة وأسرار اللاَّهوت

• إنَّنا لا نستطيع أن نفصل أسرار الكنيسة عن أسرار اللاَّهوت، أي الجسد عن الرأس، لأنَّ المسيح هو رأس الكنيسة[١] والكنيسة هي جسد المسيح[٢]، ورسول الكنيسة هو مجد المسيح[٣]. فسرُّ المعموديَّة يعلن سرَّ موت المسيح وقيامته، بل ويحقِّقه. فهل يستطيع من لا يجوز الموت والقيامة مع المسيح في المعموديَّة أن يقول: ''المسيح قام؟''. وسرُّ التَّجسُّد بكلِّ تدبير الخلاص فيه، كامنٌ في سرِّ الإفخارستيَّا ومحقَّق فيه. فسرُّ التَّجسُّد هو عينه سرُّ التَّقوى[٤]، وسرُّ الإفخارستيَّا هو عينه سرُّ التَّقوى كقول القُدَّاس الإلهي: ''ووضع لنا هذا السِّرَّ العظيم الذي للتَّقوى''. فبدون الإفخارستيَّا تصبح قضيَّة تجسُّد ابن الله، قضيَّة لاهوتيَّة بحتة، بعيدة عن كونها سبب حياة تقويَّة للذين يؤمنون بالمسيح. وأيضاً سرُّ الميرون المقدَّس في الكنيسة، هو سرُّ الرُّوح القُدُس فيها.

أي أنَّ الكنيسة هي التي تُعلن سرَّ الثَّالوث، وسرَّ المسيح. وخارجاً عنها، هي دراسات لاهوتيَّة أكاديميَّة، تهب شهادات الدُّكتوراه، ولكنَّها لا تهب الحياة، لأنَّها إن تكلَّمَتْ عن الأسرار، تجعل منها واجبات دينيَّة، تُتمَّم كعُرف كنسي، حتى وإن زيَّنَتها ببريق ألفاظ محبوكة المعنى.

فيشرح القدِّيس بولس الرَّسول كيف أنَّ الكنيسة هي واسطة التَّعرُّف على سرِّ الثَّالوث، فيقول: «... لي أنا أصغر جميع القدِّيسين أُعطيَت هذه النِّعمة، أن أبشِّر بين الأُمم بغنى المسيح الذي لا يُستقصى، وأُنيرَ الجميع في ما هو شركة السِّرِّ المكتوم منذ الدُّهور في الله خالق الجميع بيسوعَ المسيح، لكي يُعرَّف الآن عند الرُّؤَساء والسَّلاطين في السَّماويَّات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوِّعة حسب قصد الدُّهور الذي صَنَعهُ في المسيح يسوع ربِّنا ...» (أفسس ٣:٨-١١).

• إذاً، إنْ كان سرُّ الكنيسة هو سرُّ المسيح نفسه – لأنَّ الكنيسة هي جسد المسيح كقول الرَّسول – وإن كنَّا لا نستطيع أن نستقصي ''سرَّ المسيح'' ونستنفذ كلَّ أعماقه، فهكذا أيضاً سرّ الكنيسة. ومع ذلك فعندما يستأمن الله قدِّيسيه وأنبياءه ليعرِّفهم ويُعلن لهم أسراره، يظلّ هذا الإعلان إعلاناً قلبيًّا داخليًّا يحسُّه القلب، وبالكاد يستوعبه العقل استيعاباً جزئيًّا غير كُلِّي.

• لقد ظلَّت أسرار الكنيسة وأسرار اللاَّهوت في حياة الكنيسة الأولى ملتحمة بليتورجيَّتها، ومختَبرة في الكنيسة بحياة عابدة ملؤها الإيمان والتَّقوى، يتذوَّقها الإنسان شاهداً ما أطيبها، فيؤمن بها بدون تحديد مدرسي لمفهومها، أو تعريف وتصنيف لها، ومتى يبطل فعلها؟ ومتى يسري مفعولها؟ وعددها وشروط منحها ... الخ.

فهل يمكنك أن تصف في كلمات طعم التُّفَّاح مثلاً؟ أو تعبِّر عن رائحة الأزهار الجميلة بتعبيرات كلاميَّة؟ فهكذا أسرار الكنيسة إذا لم يختبرها القلب، تظل معرفتها العقليَّة جدباء لا تجدي نفعاً.

• إذاً، الإيمان بأسرار اللاَّهوت، هو نفسه إيمانٌ بالكنيسة ومن داخل الحياة فيها. هو إيمانٌ تغذِّيه الأسرار الكنسيَّة، التي هي نبعُ القوَّة فيها، ومضمون أسرار اللاَّهوت وتحقيقه.

---

١ – أفسس ٥:٢٣
٢ – كولوسي ١:٢٤
٣ – ٢كورنثوس ٨:٢٣
٤ – ١تيموثاوس ٣:١٦

وبذلك نستعيد تراث الكنيسة الشَّرقيَّة الأصيل، وهو التُّراث الذي لا يعالج أو يشرح الأسرار بطريقة منهجيَّة مدرسيَّة قانونيَّة – كما يفعل اللاَّهوت الغربي المدرسي – سوى في جانب بسيط منه، بل يفسح المجال بكليَّته، لشرح الأسرار من داخل اللِّيتورجيَّا، وحياة الكنيسة وصلواتها، وعبادتها، رابطاً بين السِّرِّ الكنسي والحياة التَّقوية لمتقبِّليه، فيأتي السِّرّ غايته، كحياة معاشه ومختَبرة.

مفهوم السِّر الكنسي

• الكلمة اللاَّتينيَّة المرادفة لكلمة ''سر'' في اللُّغة العربيَّة، هي Sacramentum ومنها جاءت في الإنجليزيَّة Sacrament أو mystery وهي في اليونانيَّة μυστηριον (ميستيريون). والكلمة اللاَّتينيَّة في أصلها اللُّغوي كانت تعني ''القَسَم''، أو ''الحلف'' خصوصاً القَسَم العسكري، وهو ''قَسَم الولاء''. وانتشرت آثار هذا المعنى، وعاشت في أدب الكنيسة المبكِّر، كما عند العلاَّمة ترتليان (١٦٠_٢٢٥م) مثلاً[٥].

ولقد استُخدمت الكلمة في اللاَّهوت المسيحي في مجال متَّسع رحب. فالقدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) يُعرِّف السِّرَّ بأنه ''شكلٌ منظورٌ لنعمة غير منظورة'' أو ''علامةٌ لشيء مقدَّس''، مطبِّقاً ذلك حتى على صيغ الصَّلوات الكنسيَّة، مثل قانون الإيمان، والصَّلاة الرَّبيَّة. واستمر هذا التَّطبيق المتَّسع حتى العُصور الوُسطى. وينبغي أن نلاحظ هنا، أنه برغم التعريف الضعيف لمعنى السِّر الكنسي عند القدِّيس أغسطينوس، إلاَّ أنه يطبق مفهوم السِّر على صيغ الصَّلوات الكنسيَّة أيضاً. وهذه نقطة جوهرية، سنعود إليها لاحقاً لشرحها.

• ولقد ظهر في اللاَّهوت الغربي الكاثوليكي، ومنذ سنة ١٢٣٥م، تمييزٌ بين المادة والشَّكل The matter and the form في الأسرار الكنسيَّة. فالمادة هي العنصر الذي يجري عليه السِّر، كالماء للمعموديَّة والخُبز للإفخارستيَّا ... الخ، أمَّا الشَّكل فهو كلمات التَّقديس التي بواسطتها يتم تقديس السِّر. ولقد دخل العُلماء في مباحثات ومناقشات عقلانيَّة طويلة. وصارت صحَّة المادة وصحَّة الشَّكل، هي التي تحدِّد قانونيَّة السِّر وصلاحيَّته.

وفي اللاَّهوت الغربي أيضاً، لا تعتمد قانونيَّة السِّرِّ على استحقاق أو عدم استحقاق المتمِّم للسِّر. وأنَّ غياب الإيمان والتَّوبة ربما يضع عائقاً في طريق النِّعمة التي تفيض طبيعيًّا من الأسرار، وفي مثل هذه الحالات فإنَّ الفعل السَّرائري برغم قانونيَّته وصلاحيَّته، إلاَّ أنَّه يصبح عديم التَّأثير ... الخ[٦].

ولقد ضمَّنت الكنيسة الكاثوليكيَّة كلَّ إيمانها وعقيدتها فيما يختص بالأسرار الكنسيَّة، ورُتب الإكليروس فيها، وكافة الصَّلوات، وأوجه العبادة فيها، وشرح قانون الإيمان، والصَّلاة الربيَّة، والتَّعليم عن أسرار الثَّالوث، والتَّجسد، والفداء، والمجيء الثَّاني، والحياة الأبديَّة، والرُّوح القُدُس وعمله في الكنيسة والمؤمنين، والوصايا العشر ... الخ، ضمَّنت كلَّ ذلك في كتاب ''التَّعليم المسيحي'' وهو المعروف باسم Catechism ''كاتيشزم''[٧]. ولقد نقلت الكنائس الشَّرقيَّة والغربيَّة على السَّواء من

5- *Ad. Martyres*, 3.

6- F.L. Cross & E.A. Livingstone, *The Oxford Dictionary of The Christian Church* (*ODCC*), 2nd edition, 1988, p. 1218.

٧- بُدء في تدوينه في منتصف القرن السَّادس عشر في شكل أسئلة وأجوبة تُلقَّن لكلِّ إنسان ينتمي إلى الكنيسة الكاثوليكيَّة قبل منحه سرّ الميرون بواسطة الأُسقُف (*ODCC*, p. 249.) واستمرَّت الإضافات والتَّعديلات عليه عبر السِّنين حتى سنة ١٩٨٥م عندما ظهرت طبعة جديدة له. وفي سنة ١٩٨٦م تشكَّلت لجنة من الإكليروس واللاَّهوتيِّين لوضع كتاب ''التَّعليم المسيحي – الكاتيشزم'' في ثوب جديد، حيث ظهر في سنة ١٩٩٣م، يحوي تجديداً أو تأصيلاً لبعض النَّظريَّات اللاَّهوتيَّة في الكنيسة الكاثوليكيَّة بما يتَّفق مع آباء الكنيسة الأوائل، ممَّا أظهر بادرة تقارُب بين الكنيسة الكاثوليكيَّة والكنيسة الأرثوذكسيَّة في كثير من المبادئ التي كان مختلَفاً عليها فيما سبق، وذلك بعد أن استبعد الكاتيشزم الجديد مبادئ القدِّيس أغسطينوس التي لم تعُد تُناسب العصر، على حد قول الكنيسة الكاثوليكيَّة، وكذلك الفكر اللاَّهوتي الذي روَّج له في الغرب اللاَّهوتي الإنجليزي أنْسلمْ (رئيس أساقفة كانتربري في القرن الحادي عشر)، حيث أخذت الكنيسة الكاثوليكيَّة بآرائه، وتسرَّبت بعض تلك الآراء إلى كتابات بعض المؤلِّفين في الكنيسة الشَّرقيَّة عن أسباب الفداء والخلاص، والتي يحصرها في أسباب قانونيَّة مثل إرضاء الغضب والعدل الإلهيَّين، وتلوُّث الإنسان بخطيئة آدم الأصليَّة ... الخ. حيث اعترف الكاتيشزم الجديد بالأُسُس الإيمانيَّة الرَّئيسيَّة التي يعترف بها

هذا الكتاب، بعد أن ترجمته وشرحته دونما تمعُّن، فكانت النَّتيجة لاهوت غربي اقتحم الكنيسة الشَّرقيَّة، واختلط بلاهوتها الأصيل وليتنه.

ويُعرِّف ''الكاتيشزم'' الغربي السِّرَّ الكنسي بأنَّه ''علامةٌ خارجيَّةٌ منظورةٌ، تهبنا نعمة داخليَّة روحيَّة ...''. وهو تكرارٌ لتعريف القدِّيس أغسطينوس للسِّر، أنَّه ''شكلٌ منظورٌ لنعمة غير منظورة''. فبات مفهوم السِّر الكنسي بهذا الإيجاز المخل، ضعيفاً.

اللاّهوت الغربي هو لاهوت مدرسي المنهج، يُخضع كلَّ شيء للتَّقسيم والتَّبويب والفحص والتَّحليل والاستنتاج. فلمَّا طال هذا اللاهوت أسرار الكنيسة وصلواتها اللِّيتورجيَّة، تورَّط في شرح السَّمائيَّات بمنهج الأرضيَّات، وأخضع السِّر لمنطق العقل، فغاص في متاهات لا قرار لها، لأنه حاد حيناً عن التَّعليم الآبائي، الذي لا يفصل بين اللاّهوت والعبادة والخلاص، والذي يعطي الإيمان دوره اللائق به في حياة الكنيسة. لا نُنكر أنه يمكن للذِّهن المستنير بالنِّعمة، أن يفحص أسرار الكنيسة وعقيدتها، ولكن إلى حدود يتعذَّر عليه تخطِّيها، ومن ثمَّ وعند هذا الحد، لابد أن يفسح مجالاً للإيمان، ليوقن بقلبه الدَّاخلي بما لا يمكن لذهنه أن يستوعبه. وإلاَّ فكيف تظل أسرار الكنيسة وعقائدها أسراراً، متى تمَّ إخضاعها للعقل والمنطق والتَّحليل؟

• إنَّ كتابات الآباء في الكنيسة الأولى، تشرح وتفسِّر الأسرار من داخل الاحتفال اللِّيتورجي الفِّعلي بها، كون اللِّيتورجيَّا هي حياة الكنيسة وإيمانها. فالسِّرُّ الكنسي ملتحم باللِّيتورجيَّا، ولا يكمل بدونها. فالشَّركة في الحياة اللِّيتورجيَّة في الكنيسة هي الضَّمان الوحيد لتفسير السِّرِّ تفسيراً اختباريًّا حياتيًّا معاشاً، وهو ما لم يفعله اللاّهوت الغربي الذي عزل السِّرَّ عن اللِّيتورجيَّا، وجعله أداة نعمة قائمة بذاتها، فأفقد اللِّيتورجيَّا وظيفتها، والتي هي استعلان السِّرّ وغايته. فسرُّ الإنجيل نفسه لا يُستعلَن إلاَّ من داخل الكنيسة ونظام عبادتها وصلواتها، لأنَّ معرفة الإنجيل نفسه إذا لم تؤدِّي إلى حياة كنسيَّة تقويَّة، تظلّ معرفة إنجيليَّة عقليَّة، حتى وإن لبست هذه المعرفة ثوباً من تأمُّلات روحيَّة، أو تفسيرات لاهوتيَّة. فإن كنتَ تحبّ الإنجيل، فليظهر هذا من خلال حياة شركة فعليَّة تحياها في الكنيسة المقدَّسة بأسرارها وليتورجيَّتها.

وإنَّ كلَّ شرح وتفسير لأيِّ سرٍّ كنسي، لا يُفضي في النِّهاية إلى الإفخارستيَّا ويصب فيها، هو شرح عقلاني غريبٌ عن اللاّهوت الشَّرقي، حتى لو اكتسى ثوب البلاغة وإتقان الأسلوب. فأيُّ سرٍّ كنسي في حدِّ ذاته لا يمكن أن يكون نعمة إلهيَّة، إلاَّ إذا اكتمل بالشَّركة في جسد الرَّب ودمه الأقدسَين، وهنا يكمُن قصور المفهوم الأوغسطيني للسِّر.

السِّرُّ الكنسي هو واسطة العلاقة بين الله والإنسان، وفي ذات الوقت مجال تحقيقها الوحيد. فبالسِّرِّ الكنسي ننال حياة الله فينا، وبالسِّرِّ الكنسي يسكب الله فينا كلَّ هباته وعطاياه ومواهبه وأسراره. فهو باب دخولنا إليه، أو بالحري دخوله إلينا. وهو الطَّريق الوحيد لسكناه فينا. هذا ما تفعله الكنيسة وتحقِّقه الأسرار فينا.

وهكذا تلتحم الحياة اللِّيتورجيَّة في الكنيسة مع مضمون أسرارها، فتمتزج التَّقوى باللاّهوت. فاللِّيتورجيَّا تُكمِّل السِّرَّ الكنسي، والسِّرُّ الكنسي يُحقِّق اللِّيتورجيَّا، فتصبح العبادة هي مصدر العقيدة.

• إنَّ تحوُّل السِّرّ الكنسي في اللاّهوت ما بعد الآبائي، يتمثَّل في عزلته داخل كيان سرائري قائم بذاته، وعندما أُعليت الأسرار الكنسيَّة ومُجِّدت من حيث هي حقائق سامية، بدأ اللاّهوت يتغرَّب تدريجياً عن الأسرار الكنسيَّة. إنَّ الخطأ المميت في العقلانيَّة ما بعد الآبائيَّة، كان عزلها للسِّرِّ الكنسي عن اللِّيتورجيَّا، من حيث كون اللِّيتورجيَّا تعبيرٌ كُلِّيٌّ عن حياة الكنيسة وإيمانها. هذا العزل في الواقع قد عزل السِّرَّ الكنسي عن الرَّمز، أي عن تلك الصِّلة وذاك الاتصال بمجمل الحقيقة التي تتحقَّق

الأرثوذكس الشَّرقيُّون، وأعطى الأهميَّة الأولى لآباء الكنيسة الذين كتبوا باليونانيَّة مثلما فعل مع الذين كتبوا باللاَّتينيَّة، وكذلك التَّقليد المستيكي الأصيل الذي يشترك فيه الشَّرق والغرب، محاولاً أن يتجنَّب منهج بلاجيوس، ذلك الرَّاهب البريطاني المولد، الذي ترهَّب في أواخر القرن الرَّابع الميلادي، وعاش في روما، وكان يؤكِّد على الجهاد البشري دون مساندة النِّعمة في سبيل خلاص الإنسان، ولقد انشغل القدِّيس أغسطينوس بالصِّراع معه. بينما يؤكِّد الفكر الأرثوذكسي بشدَّة على دور النِّعمة واشتراكها مع إرادة الإنسان في تكميل خلاصه، حيث تُصبح الفضيلة عملاً إلهيًّا بشريًّا مشترَكاً.

في السِّرِّ الكنسي. وإذ أصبح السِّرُّ الكنسي ''أداة نعمة'' مغلقة، قائمة بذاتها، صار نقطة حقيقيَّة في بحر من الرُّموز، فحُرمت اللِّيتورجيَّا من وظيفتها الخاصة التي هي ربط السِّرِّ الكنسي بمضمونه[٨].

• أسرار الكنيسة من حيث كونها توحِّدنا بالمسيح، وتثبِّتنا فيه، لا تكون رموزاً أو أشكالاً للتَّعبير عن إيمان الكنيسة، أو وسيلة للوصول إلى هذا الإيمان، بل هي تحقيق هذا الإيمان، هي إيَّاه وليس تعبيراً عن معناه. إيمان الكنيسة هو في كماله، اقتناء حياة المسيح وفكره، وبالتَّالي اقتناء حياة الكنيسة. فحياة الكنيسة هي في اقتنائها لحياة المسيح بالأسرار الكنسيَّة، تلك الأسرار التي استودع المسيح فيها كلَّ حياته، لكي تنتقل بدورها إلى الكنيسة، ومنها إلى كلِّ المؤمنين بالمسيح، ليس في كون الأسرار الكنسيَّة كوسيلة لغاية، بل نبع هذه الغاية ودوامها. فالانعزال عن الأسرار الكنسيَّة هو انعزال عن حياة المسيح، فحياتنا في المسيح لا تتم بواسطة الأسرار الكنسيَّة، بل من داخلها.

إنَّ عمل الكنيسة، هو أن تنقل إلينا وباستمرار حياة المسيح بالأسرار، فإن توقَّفت ديمومة السِّرِّ تعطَّل في الحال عمل الكنيسة، وانتفت بالتَّبعيَّة حياة المسيح فينا.

٨- ألكسندر شميمان، من أجل حياة العالم، منشورات النُّور، ١٩٩٤م، ص ١٩٠-٢١١ بتصرُّف.